العمل معاً من أجل تراث دنقلا العجوز

تم إدخال علم الآثار في السودان بالتوازي مع الاستعمار في القرن التاسع عشر الميلادي. ومنذ أمد طويل قاد علماء الآثار الغربيون عمليات تنقيب كُبرى ونشروا أعمالًا فنية رائعة ومعلومات أساسية خارج السودان. ومنذ استقلال السودان في عام 1956، يقود عدد متزايد من علماء الآثار السودانيين مشاريعهم وأبحاثهم الخاصة، ويتعاونون مع المشاريع الدولية. ويقوم قسم الآثار في ست جامعات بتدريب الباحثين السودانيين المستقبليين. ومع ذلك، لا يزال علم الآثار مرتبطاً بالخواجات (الأجانب) في المجتمع السوداني. يُعتبر علم الآثار بالنسبة لبعض السُكّان المحليين بمثابة تذكير بالاستغلال والقمع الذي كان إبان حقبة الاستعمار.

هذا وقد دأب علماء الآثار البولنديون على دراسة وفحص تاريخ وتطور دنقلا العجوز منذ عام 1964م. وكانت العلاقة خلال هذه السنوات الـ 56 بين المشروع والمجتمعات المحلية قد تشكّلت بصورة طبيعية ويشعر علماء الآثار بأنهم جزء من المجتمع. ويتذكر سُكّان الغدار ستيفان ياكوبيلسكي، الذي ترأس المشروع لمدة 40 عاماً، لتبرعاته للمدارس المحلية ومساهماته في الإمدادات الطبية والمساعدة في حالات الطوارئ المختلفة. ورغماً عن ذلك، كان هناك بعض سوء الفهم وانعدام الثقة الذي تنامى مع مرور الوقت. انتشرت بعض الشائعات حول القرية مثل أن الفريق الأثري اكتشف الذهب والكنوز ولكنه أبقاها في طي الكتمان عن السُكّان المحليين وأخذها بعيداً، أو أن علماء الآثار حاولوا تحويل السُكّان المحليين إلى الديانة المسيحية (تنصيرهم). وقد أُسيء فهم أعمال التثبيت التي تمت في المسجد في الأعوام 2015-2017 على أنها إعادة بناء الجامع - كنيسة. بالنسبة لعلماء الآثار كانت

هذه الشائعات لا أساس لها على الإطلاق. غير أنه بالنسبة لسُكّان القرى المحيطة فقد أدى انحسار التواصل مع الفريق إلى الشك والارتياب في أعماله، حيث لم يكن بإمكان السُكّان المحليين سوى التكهن بما كان يعمل عليه المتخصصون الأجانب. وليس مستغرباً في أن تتحوّل إلى مثل هذه القصص.

للأسف هذا النوع من الشعور بعدم الثقة المتولّد لدى السُكّان المحليين تجاه علماء الآثار الغربيين، ليس بالأمر غير المعتاد في السودان، فقط كانت تختلف درجته من مكان إلى آخر. يعود ذلك جزئياً إلى حقيقة أن علم الآثار هو ممارسة استعمارية، يُسيطر عليها إلى حد كبير علماء من الخارج ومصالحهم لأكثر من 180 عاماً. كذلك غالباً ما يكون للمشاريع الأثرية علاقة مع مجموعة محدودة من السُكّان المحليين، وعلاقات مرتبطة بالعمل (في الغالب مع رجال بالغين يعملون كعاملين في التنقيب). بالنسبة لجزء كبير من القرية، فإنهم يشبهون الجار الخفي الذي يأتي من خارج مجتمعاتهم وبالكاد يتواصل معهم. معظم القرى المحيطة بالمواقع الأثرية عبارة عن مجتمعات مترابطة بشدة تُقدّر علاقات الجوار. علاوة على ذلك، وحتى وقت قريب لم تكن مشاركة نتائج البحث الأثري مع المجتمعات المحلية المباشرة ممارسة شائعة في علم الآثار السوداني. فقد كان السُكّان المحليون فقط يشاهدون مكانهم المألوف أثناء التنقيب وأن الأشياء والمعلومات قد تم أخذها بعيداً عن المنطقة، ولم يروا الكثير منها مرة أخرى على الإطلاق.

لقد بات من الضروري اتباع نهج جديد لتغيير هذا ولإقامة علاقة أوسع وأكثر ثقة مع السُكّان المحليين. وكمشروع استهلالي، بدأ مشروع حوار دنقلا العجوز في عام 2019م. وهو يُركّز على علم الآثار المشترك مع المجتمع المحلي. يبحث المشروع في العلاقة بين موقع دنقلا العجوز وممارسة العمل الأثري فيه مع سُكّان قريتي الغدار وبكبول بغية فهم القيم المحلية لدنقلا العجوز. وفي ذات الوقت، تم تصميم برامج انخراط المجتمع المحلي لخلق فرص لمشاركة نتائج البحث، ومقابلة علماء الآثار مباشرة لقطاع أعرض من السكان المحليين والتباحث معاً حول ماضي وحاضر دنقلا العجوز.

بدأ برنامج شبكة مدارس جديد للطلاب السودانيين والبولنديين في عام 2020. (تصوير: م. ركوايتس)

اجتماع مع مجموعة من الرجال من الغدار. (تصوير: م. ركوايتس)

تعتبر اللقاءات مع الشيوخ، المعلمين والنساء وسيلة هامة لمعرفة المزيد عن وجهة نظر المجتمع والمعرفة. (تصوير: ت. فوشيه)

مدير المشروع، أرتور أوبوسكي يزور مدرسة ابتدائية في الغدار ويتحدث مع التلاميذ. (تصوير: ت. فوشيه)

وقت الشاي مع الريّس وزوجته في منزل المشروع السابق في الغدار. (صوير: م. ركوايتس)

مدير المشروع، أرتور أوبوسكي يزور مدرسة ابتدائية في الغدار ويتحدث مع التلاميذ. (تصوير: ت. فوشيه)

44 من معلمات المدارس الابتدائية يحضرن الاجتماع الأول مع الفريق البولندي في عام 2019. (تصوير: ت. فوشيه)

نفيردنقلا العجوز. (تصوير: م. ركوايتس)

يمضي هذا التعاون قُدماً متجاوزاً المشروع الأثري التقليدي، حيث تم تشكيل لجنة مشتركة بين الفريق البولندي وممثلي السكان المحليين لمناقشة ووضع خطة تعنى بالتراث والتنمية. كما بدأت أيضاً نقاشات لتحديد الاهتمامات والاحتياجات مع أصحاب المصلحة الآخرين على المستويات الوطنية والإقليمية والمحلية من أجل التخطيط المشترك والتنمية المستدامة. ويشمل ذلك مكتب السياحة المحلي وشرطة السياحة - وكلاهما لديه اهتمام قوي ويظهر دعمًا لهذا التعاون الجديد.

لقد بدأ المشروع للتو. وهو بكل تأكيد يقتضي التزاماً طويل الأمد من كلا الجانبين من أجل تعاون مثمر، وفي نهاية المطاف لتغيير طريقة ممارسة علم الآثار التي كانت سائدة على مدى الـ 180 عاماً الماضية في السودان. لقد شهد التعاون بالفعل آثاراً إيجابيةً. ففي اليوم المفتوح للموقع في عام 2019م تجمّع أكثر من 1000 شخص من السُكّان المحليين، الذين

طلبة الغدار في زيارة لموقع الحفريات. (تصوير: م. ركوايتس)

كانت قد تمت دعوتهم جميعاً للحضور إلى الموقع، وقام علماء الآثار بالشرح والتوضيح. وقد تم استقبال بعض البرامج المجتمعية بشكل جيد وفُتحت المزيد من أبواب الحديث. هذا وتعمل برامج التعاون مع 4 مدارس ابتدائية في الغدار على رفع درجة وعي التلاميذ بتراثهم المحلي وآثارهم. وعلى الرغم من أن العدد الهائل من الأشخاص الذين كانوا يتجولون بين الآثار المهددة بالتخريب قد أصبح مصدر قلق جديد، إلا أن علماء الآثار كانوا سعداء بمشاهدة مدى ما أثاره عملهم من اهتمام من قبل السُكّان المحليين،

ويُعتبر هذا الكتاب الأوّل من سلسلة لتسجيل التراث الثقافي في دنقلا العجوز والإخبار عنه من خلال المعرفة الأثرية والمحلية، وهو مُتاح على نطاق واسع للمجتمعات وعامة للجمهور السوداني والدولي. وسيتم إنتاج إصدارات مستقبلية من خلال مزيد من التعاون بين السُكّان المحليين وعلماء الآثار. إن المشروع الأثري يحدوه الأمل في مواصلة هذا المسعى الجديد مع أهالي الغدار وبكبول وما ورائها. وتحظى المجتمعات المحلية بالترحيب في هذا التعاون الجديد وقد أعربت عن العديد من الآمال والتطلعات التي يمكنها أن تنمو من هذه النقطة. إنها فرصة تعلّم لكلا الجانبين. وإننا نتطلع إلى سماع آراء الناس حول أفكارهم وآرائهم للمجلّد القادم من سلسلة الكتب التراثية هذه، والمساهمة فيها.

الموضوع السابع: اكتشف دنقلا العجوز

”لقد كانت ورشة العمل شيّقة واستمتعت بذلك. أتمنى أن تستمر ونكتشف المزيد عن موقع دنقلا العجوز.“
.”أتمنى لكل من لم يحظ بزيارة دنقلا العجوز أن يقوم بذلك ويحمي آثارها“
”التقينا بعلماء الآثار وزرنا الكنيسة والمسجد في دنقلا العجوز“.

هذه أصوات أطفال المدارس في المجتمعات المحلية بعد ورشة عمل المُلصّقات. شاركت مجموعات من التلاميذ من أربع مدارس ابتدائية في الغدار في ورشة العمل التي قام بتنظيمها مشروع المركز البولندي لآثار البحر الأبيض المتوسط، حيث تعرّفوا على الموقع والتنقيب وأحدث الأبحاث التي يعمل عليها علماء الآثار، ثم قاموا بتصميم مُلصّق عن دنقلا العجوز.

تستهل ورشة العمل فعالياتها بزيارة ميدانية. بعدها ينقسم الطلاب إلى مجموعات مع كاميرا لكل مجموعة لتسجيل ما تعلموه ووجدوه مثيراً للاهتمام أثناء الزيارة. وعند العودة إلى الفصل، قام الطلاب بعمل ملصق لتعريف ضيوف مجتمعاتهم بدنقلا العجوز. وفي نهاية الورشة قدّم الطلاب عرضاً مصوراً مع الملصق أمام رؤساء مكتب التعليم، ومكتب السياحة، والشرطة السياحية، والمشروع البولندي، والمدراء، والمعلمين، والطلاب وأولياء أمورهم. وقد قامت كل مجموعة بعمل ملصق فريد باستخدام المعلومات التي تعلموها والصور التي التقطوها! في السنة الثانية، قام تلفزيون محلي بعرض هذا العمل الطلابي الرائع وورشة العمل.

ورش عمل بوستر (ملصق) للطلاب المحليين بالتعاون مع المدارس الابتدائية بالغدار. (تصوير: ت. فوشيه)

الموضوع الثامن: التعاون في دراسة الماضي

المعرفة الأثرية ليست الطريقة الوحيدة لمعرفة الماضي. وتُعتبر المعرفة في المجتمعات المحلية التي تراكمت من خلال التجارب الحيّة والذكريات الجماعية مصدراً مهماً لمعرفة الماضي.

نقاش وتبادل المعرفة، حول الأشياء المكتشفة، بين الرجال المحليين والآثاريين. (تصوير: م. ركوايتس)

تُركّز الحفريات الحالية على كيفية تطوّر المدينة في وقت قريب من التحوّل السياسي إلى الحكم الإسلامي من القرن الرابع عشر الميلادي فصاعداً. وقد وصلت الحفريات الدقيقة حتى الآن إلى طبقات الفترة من القرن السادس عشر إلى الثامن عشر الميلادي. ووُجدت بعض المنازل التي شُيِّدت باستخدام تقنية البناء بالمواد العضوية والجص، مما يُشير إلى ظهور مجموعات جديدة من الناس والتقنية. ومن ناحية أخرى، فإن العديد من السمات الأخرى للحياة الأسرية مألوفة لدى السُكّان المحليين (بما في ذلك الطلاب).

هناك الكثير من المعارف والمهارات المُتعلّقة بالتراث المحلي المحفوظة بين المجتمعات. وما زالت بعض الأشياء مألوفة لكبار السن حيث كان يستخدمها أجدادهم في الحياة اليومية. وقد يُشير البعض الآخر إلى الروايات المتناقلة شفاهةً. كما أن بعض الناس بإمكانهم تسمية الأشياء باللغتين العربية والأنداندي النوبية.

تمت المحاولة الأُولى لدمج المعرفة المحلية والأثرية في دنقلا العجوز عام 2020م. إذ اجتمع بعض السُكّان المحليين وعلماء الآثار حول قطع مُكتشفة مختارة من دنقلا العجوز للقيام بمناقشتها. واتضح أنها فرصة تعليمية مهمة لعلماء الآثار وفرصة لتعزيز المشاركين المحليين الذين كانوا راضين ومسرورين بأن معرفتهم تساهم في البحث عن تاريخهم.